(مظاهر النزاعات المذهبية بين السنة والشيعة خلال العصر البويهي 334هـ/447هـ)

- الجانب الاجتماعي نموذجا –

أ/ الود محمد بلال ، جامعة الجلفة

Résumé :

Les conflits confessionnels entre les sunnites et les chiites constituent un tournant dangereux, dans les IX et X siècles, en provoquant séditions, assassinats, dissidence et insulte à l'égard des compagnons du Prophète, à cause du soutien des Bouyides aux chiites et leur hostilité vis-à-vis des sunnites .Ce conflit ne s'est pas estompé et perdure encore de nos jours.

Les mots-clefs : sunnites- chiites- sédition- conflits confessionnels.

تمهيد:

أفضى انتشار النزاعات المذهبية بين الطوائف الإسلامية خلال تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدولة العباسية التي ملك فيها البويهيون[1] مقاليد الحكم إلى مظاهر أوهنت عرى الدولة العباسية وصبغت المجتمع الإسلامي بالضعف والتشتت بين مختلف الطوائف الإسلامية عامة وبين السنة والشيعة خاصة حيث تداعت أركان هذا البناء , وسقطت روابط الأخوة والتلاحم بين أفرادها , واستبدلت بالتناحر والتطاحن بفعل أسباب لاترقى إلى مستوى الخلاف بل إلى التعصب والتزمت والتنازع وقد مس هذا الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة جوانب عديدة من الحياة العامة في العراق وبلاد المشرق, حيث برز الجانب الاجتماعي كأبرز مظهر لهذا النزاع المذهبي بين الطائفتين، وفي هذه الدراسة سأسلط الضوء على مظاهر هذه النزاعات في نقاط مركزة .

1/ كثرة القتل والفتن الطائفية:

يعتبر هذا المظهر الأبرز تأثيرا والأشد تسببا في تفكك المجتمع الإسلامي في هذه الفترة من تاريخ الدولة العباسية، إذ شهد المجتمع الإسلامي حدوث فتن دامية أودت بحياة آلاف المسلمين من الفرقتين وقد اشتعلت نيران الفتن الطائفية بين الشيعة وأهل السنة في الكثير من المرات ومن ذلك على سبيل التمثيل سنة 348 هـ - 959 م، وفتنة سنة 349 هـ -960 م [2].

وقد كان لهاتين الفتنتين آثار وخيمة على المجتمع المسلم, فقد تعطلت صلاة الجمعة في كل مساجد بغداد , وأنعدم الأمن وخشي الناس على أنفسهم وممتلكاتهم وقد غالى أهل الرفض في تعصبهم، فبلغ بهم الأمر أن كتبهم على جدران المساجد شعارات فيها لعن معاوية بن أبي سفيان وعائشة رضي الله عنها وسائر الصحابة في ازدراء واضح لمعتقدات أهل السنة واستفزاز لمشاعرهم, وقد أثار ذلك حفيظة هؤلاء وأجج دواعي السخط والبغض مما تسبب في استباحة مناطق كثيرة في بغداد وباقي المدن، حيث شاع القتل بينهم وكثرت الجرائم واستباحة الحرم , وقد وقف أمراء بني بويه موقف المتفرج من تلك الأحداث مع نصرتهم للشيعة خفية .

أما خلفاء بني العباس فكانوا بلا حول ولا قوة لذلك أوعز معز الدولة البويهي وهو أشهر أمراء بني بويه وأشدهم تعصبا وكرها لأهل السنة بإبقاء الشعارات مكتوبة مرفوعة مما يدل على تحزبه وتعصبه لأهل الرفض.

وقد فشا التشيع في أيامه وكان ظاهرا ببغداد، وقد كان هذا الأمير فيما يذكره المؤرخون سريع الغضب بذيء اللسان, متسلطا على وزرائه وأمرائه شديد التعصب للشيعة كارها لأهل السنة[3] .

ولم تكن هذه الحوادث مقتصرة على بغداد وحدها، فقد شهدت مدن خراسان, و همذان , والبصرة والري حوادث مماثلة أشعلها الشيعة تعصبا على أهل السنة مما تسبب في مقتل الكثير من الأبرياء, وأدى إلى ازدياد تفكك المجتمع الإسلامي أنداك بهذه الأفعال الرعناء, والشواهد التاريخية على كثرة القتل كثيرة يتصدرها ما كان يحدث في يومي عاشوراء و الغدير, من قتل وجراحات وصدامات بين أهل السنة والشيعة، وسأورد شاهدين كبيرين حول هذا الموضوع, يؤكدان بجلاء انتشار الفتن وشيوع القتل بين الشيعة والسنة[4].

الشاهد الأول: قام به الوزير السني أبو الفضل الشيرازي الذي عرف عنه التعصب لأهل السنة وكان ذلك سنة 362هـ، عندما انتقم من أهالي حي الكرخ الشيعي الذين قتلوا صاحب المعونة ونكلوا بجثته، فأحرق هذا الوزير حي الكرخ بأكمله انتقاما له, وقدر ابن كثير عدد الذين قتلوا في هذه الفتنة بسبعة عشر ألف إنسان (17 ألف) من أهالي الكرخ الشيعة حيث أحرقوا داخله، ولم يستطع الأمير البويهي الانتصار للشيعة والانتقام من الوزير السني إلا بعد ردح من الزمن حيث نكبه ونكل به .

الشاهد الثاني: يتلخص في فتنة حدثت في منتصف القرن الخامس الهجري سنة 443هـ، عندما نصب الشيعة أبراجا كعادتهم في الاحتفال وكتبوا عليها بماء الذهب :" محمد وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر" ، فأنكر أهل السنة ذلك ونشبت الحرب بينهما، وأستمر القتال مدة ثلاثة أشهر ووصلت هذه الفتنة إلى حد إحراق الدور والمساجد والقبور، وكانت فتنة هوجاء راح ضحيتها ألاف الضحايا من الجانبين [5] .

والملاحظ في هذه الفتن التي كانت تحدث في بغداد أنه صاحبها حرق للدور والمنازل والمساجد, أي أنها أتت على كل شيء في تلك الأحياء، ما يبين مقدار الحقد والغل بين الطائفتين السنية والشيعية.

أما بلاد فارس فكانت بمنأى عن هذه الحوادث,وذلك لسيطرة البويهيين بشكل كبير على الأوضاع هناك بالإضافة إلى قلة الشيعة بالمنطقة مقارنة بأهل السنة والشواهد قليلة منها:

الفتنة التي حدثت بين أهل أصبهان السنة و أهل قم الشيعة، حيث سب أهل قم الصحابة، فثار عليهم أهل السنة بأصبهان واحرقوا الدور والمتاجر, لكن ركن الدولة البويهي انتصر لأهل قم لتشيعه وتعصبه وقد راح ضحية هذه الفتنة الآلاف من الناس .

2/ شيوع الغلو والتعصب:

إضافة إلى تلك الفتن الطائفية فإن المجتمع الإسلامي خلال هذه المرحلة عرف تدهورا كبيرا في بناءه الداخلي بسبب النزاعات المذهبية، فزاد السب والطعن واللعن والغلو والتشهير بين الطوائف الإسلامية مما جعل الحياة في بغداد وبلاد فارس صعبة وخطيرة، وعم الفساد و الفوضى أرجاء الدولة العباسية، وكان التعصب الأعمى هو أخطر هذه المظاهر التي بقيت إلى يومنا هذا .

ويرى الدكتور خالد كبير علال في دراسته للتعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي، أن مظاهر الغلو والتعصب المذهبين، مست جميع الطوائف بما فيها الطوائف السنية، التي لم تخل كذلك من النزاعات في المسائل الفرعية والتي تسببت هي الأخرى في حدوث صدامات بين الفرق السنية ، خاصة بين الحنابلة والشافعية ووصل الأمر بينهما إلى حد الاقتتال في مرات كثيرة.

ولم ينحصر الصراع بين السنة والشيعة فقط حيث أن الفرق الأخرى نالها كذلك نصيب من هذه الفتن فالأشاعرة مثلا دخلوا في صف الحنابلة لكثرتهم وقوة جانبهم في بغداد, والمعتزلة كانوا ناصرين للشيعة لوجود الدعم البويهي لهم , وانتصر

الحنابلة في كثير من المرات نظرا لكثرتهم وتعصبهم للحق دفاعا عن أهل السنة ,في مجابهة الشيعة وبالرغم من أنهم كانوا أكثر الفرق مشاغبة وتعصبا لمذهبهم إلا أن الشافعية كانوا كذلك متعصبين لأقوالهم[6].

3/ تأجج حركة العيارين :

ازدادت الأوضاع الاجتماعية سوءا بتغلب طائفة من اللصوص وقطاع الطرق على الحياة الاجتماعية ببغداد وما جاورها، وهم الذين عرفوا في التاريخ بحركة العيارين والشطار، الذين عاثوا في الأرض فسادا وبلغ أمرهم أن تولوا مناصب صغيرة في دواوين الدولة، وكان لهؤلاء سطوة كبيرة أرعبت وزراء وأمراء الدولة البويهية نفسها فحاولوا كسب ودهم, ومن الشواهد على فساد هؤلاء ما أحدثوه سنة "364 هـ" من حرق سوق الخشابين في باب الشعير ببغداد وقد انتقل الحريق إلى سوق الجزارين وأصحاب الحصر وهلك كثير من الناس في هذه الأسواق[7].

ومن الشواهد كذلك ما فعلوه بحي الكرخ الشيعي عندما نهبوه وسرقوا دكاكينه، فخرج لهم أهل هذا الحي الشيعي لمجابهتهم، مما جعل المدينة تغلق أبواب دكاكينها وبيوتها , حيث انتشرت السرقة والنهب سنة "422 هـ" , دون تدخل السلطة الحاكمة, وقد كان أغلب هؤلاء العيارين ينتصرون لأهل السنة، ويذكر ابن مسكويه في تجارب الأمم، بأن حي الكرخ أحرق أكثر من مرة في عهد سبكتكين الحاجب الذي كان سنيا متعصبا لأهل السنة[8].

أما الحادثة الثالثة فتعطينا فكرة بسيطة عن محاولة قام بها صمصام الدولة البويهي في التصدي لهؤلاء حيث انتصر عليهم وقتل منهم نفرا كثيرا , وسكنت فتنتهم فترة من الزمن بعد أن عاثوا في الأرض فسادا[9] .

والملاحظ أن العيارين في أغلب فترات العصر البويهي انتصروا لأهل السنة على الشيعة، وقاموا بالاستهزاء بهم , ووصل الأمر بهم إلى قطع الماء والمؤونة عن أحياء الشيعة.

مما يعطينا فكرة واضحة بأن الحوادث الكبرى التي جرت بين العيارين والشيعة كانت في أغلبها تصطبغ بالصبغة المذهبية حيث يتحين هؤلاء مناسبة عاشوراء والغدير، أي أنها كانت نوعا من الصراع المذهبي الطائفي بين الشيعة ومجموعة من اللصوص العيارين المنتسبين في أغلبهم إلى أهل السنة، وهذا لا يعني أن الشيعة لم يكن بينهم عيارون أو لصوص.

ومن المفارقات كذلك أن تجد لهؤلاء اللصوص صورة من الفضل والاستقامة كما حدث سنة "425" هـ، عندما أصبحوا ينادون بالأمان وزاد انتشارهم في الأسواق لحفظ الأمن ورد المظالم بين الناس وأصبحوا يجبون الأموال عن التجار ويردونها إلى دواوين الدولة، لكن الأمر لم يطل كثيرا فرجعت الفتن بين أهل الكرخ الشيعة من جهة وبين أهل باب البصرة السنة والعيارين من جهة أخرى[10].

ولك أن تتصور مجتمعا إسلاميا يسيطر فيه اللصوص على جوانب الحياة العامة لدرجة أنهم يمشون في الأسواق والشوارع ليلا بالشموع، بين المنازل ويأخذون أصحابها ويعذبونهم حتى أنهم أحرقوا دار الشريف المرتضى نقيب الأشراف، وأحد علماء الشيعة ولم يحرك أحد ساكنا حتى السلطة الشيعية ببغداد .

كما أحرقوا دار صاحب الشرطة سنة 427 هـ ، أيام الأمير جلال الدولة البويهي ولم يستطع الرجل ردهم أو الانتصار عليهم، حيث أن أعدادهم كانت كبيرة بالعراق، هذه الأمور توضح بشكل كبير سيطرة هؤلاء على الحياة في بغداد خاصة والعراق عامة، وأن هذا كان ناتجا عن انحراف كبير لدور البويهيين في حفظ الأمن ونوع من الاستهزاء بمشاعر أهل السنة[11].

4/شيوع الاحتفالات الشيعية:

لقد شكلت الاحتفالات الدينية عند الشيعة مظهرا بارزا من مظاهر الحياة الاجتماعية خلال الفترة البويهية بداية من عهد معز الدولة البويهي، وما زالت أثار هذه الاحتفالات إلى يومنا هذا راسخة كعقيدة عند الشيعة الرافضة، وفي بلدان عديدة كالعراق وإيران والبحرين والكويت ولبنان وباكستان .

فقد كان معز الدولة البويهي أول أمراء البويهيين ببغداد سنة 334 هـ، وأكثرهم تعصبا وكرها لأهل السنة، فأمر بإحياء المناسبات الشيعة والاحتفال بها على نحو لم يسبق لأحد أن قام به فبدأت هذه السنة السيئة سنة:"351 هـ - 962 م" بالاحتفال بيوم العاشر من شهر محرم وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن على رضي الله عنه بكربلاء شهيدا سنة"61 هـ"[12] ، وقد أسهبت كتب التاريخ في ذكر الحادثة بالتفصيل وسبب مقتل الحسين رضي الله عنه بعد خيانة أهل الكوفة له.

ولست بصدد التكلم عن هذه الحادثة الحزينة في التاريخ بأسبابها ونتائجها، ولكن سأتكلم عن ما أحدثه البويهيون بسببها من خلال جر الناس إلى الاحتفال بها وإغلاق الحوانيت في هذا اليوم وإبطال البيع والشراء وإظهار البكاء والنوح واللطم وخروج النساء سافرات ناشرات شعورهن، يلطمن وجوههن حزنا على مقتل الحسين بن علي .

وكان لهذه الحادثة من بدايتها في عهد معز الدولة أن استمرت إلى يومنا هذا بأشكال أكثر قبحا في إطار ما يسمي اليوم بإحياء يوم عاشوراء بمدينة كربلاء والنجف وباقي المدن العراقية وفي مختلف أنحاء العالم,حيث يجتمع الملايين من الشيعة في مواكب يطلقون عليها اسم الحسينيات تجوب أرجاء مدينة كربلاء وغيرها من المدن في صور من اللطم والجرح والعويل والصراخ وجرح الأطفال بالسكاكين، وطقوس جاهلية كثيرة، واستمر هذا الاحتفال بيوم عاشوراء طيلة أيام الحكم البويهي، خاصة أن الشيعة قد استمدوا قوتهم آنذاك من دعم البويهيين وصمت خلفاء بني العباس الضعفاء وأصبحت عادة سيئة تقام فيها أيام للصراخ والعويل وغيرها من المنكرات[13] .

ولم يكتف الشيعة فقط بالاحتفال بيوم عاشوراء، بل احتفلوا بيوم الغدير (غدير خم) وهو اليوم الذي يقولون عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة لعلي من بعده, كما عمل بعض جهال السنة يوما يحتفلون به نكاية بالشيعة وكان ذلك في سنة (389 هـ) [14]. وهو اليوم الثامن بعد يوم عاشوراء ونسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزاروا قبرا له "بمسكن" كما يزار قبر الحسين، وفي ذلك إشارة إلى ما وصل إليه الفريقان من نزاع مذهبي جعلهم يختلقون أعياداً من محض خيالهم يخلطون فيها بين الكذب و التعصب الأعمى فغدت بغداد ومدنها مرتعا للأباطيل والخرافات.

وعلى عكس يوم عاشوراء الذي يظهر فيه الشيعة الحزن والبكاء، أمر معز الدولة بإظهار الزينة وإشعال النيران وإظهار الفرح وفتح الأسواق بالليل وضرب الأبواق في يوم الغدير، وكانت تصاحب هذه الاحتفالات بيومي عاشوراء والغدير فتن هوجاء ويكثر فيها القتل، بين أهل الكرخ الشيعة وباب البصرة السنة[15].

وبقيت هذه الاحتفالات القبيحة أثرا مستمرا إلى يومنا هذا بأقبح صورها حتى أن ابن كثير ارجع ما حل بالمسلمين خلال تلك الأيام من تغلب الروم على المسلمين أيام ملكهم نقفور وانتزاع أكثر المدن منهم إلى تقصير أهل ذلك الزمان وظهور البدع الشنيعة فيهم وكثرة العصيان من الخاص والعام، وانتشار البدع فيهم وكثرة الرفض والتشيع منهم وقهر أهل السنة بينهم، فلهذا تغلب عليهم أعداء الإسلام فانتزعوا ما بأيديهم من البلاد مع الخوف الشديد ونكد العيش والفرار من بلاد إلى بلاد[16] .

ومن هنا يتضح جليا ما أثاره ابن كثير من تحكم الشيعة أيام البويهيين على أهل السنة، ونتائج ذلك على الوحدة الداخلية للمجتمع وتماسكه والنتائج السلبية لتلك الاحتفالات القبيحة والبدع الرديئة, على حالة المجتمع وتفككه وتغلب الروم على الخلافة العباسية الضعيفة، وتطورت هذه الاحتفالات بالأعياد الشيعية إلى صدامات مسلحة بين الفريقين أدت إلى انقسام الناس إلى فريقين متقاتلين في كل سنة تقام فيها هذه الاحتفالات والأمثلة على ذلك كثيرة فقد حاول بعض الوزراء السنة تعطيل

هذه الاحتفالات، على غرار الوزير أبي الحسن على بن محمد الكوكبي وزير بهاء الدولة البويهي، لكن محاولته باءت بالفشل, وكذلك الوزير عميد الجيوش الذي حاول منعها لكن محاولته انتهت كذلك بالفشل وأدت إلى مقتله[17].

5/ تفشي الانقسام الطائفي:

ومن بين المظاهر السلبية التي خلفتها النزاعات المذهبية بين الطوائف الإسلامية خلال هذا العصر مسألة الانقسام الطائفي، ممثلة باختصاص كل طائفة بمساجدها وأحياءها ومدارسها، كمظهر من المظاهر الاجتماعية لهذه النزاعات وسنأتي على رصد هذه الحالة من خلال الشواهد التاريخية.

بالنسبة للمساجد فقد كانت هناك مساجد خاصة للشيعة، كمسجد براثا وهو مأوى الشيعة يخطب فيه لآل البيت وآذانه حي على خير العمل، وقد بني سنة"329هـ" في عهد الخليفة العباسي المتقي لله، وكان لأئمة الشيعة مجالس كذب واختلاق للأحاديث حيث تجتمع الشيعة بهذا المسجد لتسب الصحابة.

وقد حاول الخليفة المقتدر بالله هدم هذا المسجد على أنه مسجد ضرار وكفر وزندقة وتفريق بين المؤمنين لكنه فشل في هدمه، وهدمه نازوك المعتضدي صاحب الشرطة في عهده وحول إلى مسجد قطيعة أم جعفر[18].

أما مدينتا الكوفة والبصرة فقد ضمتا إلى ذلك العهد عددا كبيرا من الشيعة وكان يوجد بهما المسجد الكبير وأقصد هنا "المسجد الجامع" الذي يضم الشيعة ويصلون فيه دون غيرهم من الطوائف.

وفي بلاد فارس فالملاحظ أن اغلب مدنها كانت على مذهب أهل السنة على المذهب الشافعي خاصة، وكان الشيعة كثر على السواحل التي تتصل اتصالا وثيقا بالعراق خصوصا بالعرب المتشيعين.

أما الأحياء فقد سكن الشيعة الروافض الحي الشرقي من بغداد في حي الكرخ وباب الطاق وسكنوا كذلك بالكوفة، التي كانت المركز الثاني للشيعة بالعراق، أما البصرة فكان أغلب أهلها شيعة وقدرية معتزلة فاختصت بأحياء لكل طائفة[19] .

وفي بلاد فارس سكن الشيعة أحياء كبيرة من نيسابور في الحي الغربي، وتقاسموا ذلك مع الكرامية، أما سجستان فكانت لأصحاب أبي حنيفة والشافعي، ويذكر المقدسي كذلك بأن أحياء الشيعة كانت تمتلئ بدور الزنا والبغايا خاصة "شيراز" وأنهم كانوا يعيدون مع المجوس في أعيادهم كعيد النيروز وهو عيد للفرس ويقيمون المهرجانات وغيرها من القبائح .

ومدينة الري ببلاد فارس كانت مقسمة إلى ثلاث طوائف شافعية وكانوا قلة، وحنفية وهم الأكثرية، وشيعة وهم السواد الأعظم، أما أهل الرستاق فليس فيهم إلا الشيعة، وكانوا يمنعون أهل الطوائف الأخرى من السكنى معهم، أما سامراء فكان بها جامع تزعم الشيعة أن مهديهم يخرج منه وبه السرداب المشهور الذي دخل فيه أخر أئمتهم محمد بن الحسن العسكري وغاب فيه الغيبة الكبرى[20].

أما أهل السنة فكذلك كانت لهم أحياء ومساجد اختصوا بها، بسبب تلك النزاعات المذهبية فمن المساجد السنية ببغداد جامع "المنصور"، الذي كانت المعتزلة تعلم فيه علم الكلام مع خلافهم مع أهل السنة ومن المساجد كذلك ببلاد فارس كان المسجد الجامع بأصفهان الذي كان يمثل معهدا علميا حضاريا تلقى فيه الدروس والمواعظ ويقدم فيه العلماء حلقات العلم والمعرفة كالعلامة أحمد بن الحسين النقاش الأصفهاني الذي كانت له دروس في الفقه بهذا الجامع.

وكان لجامع الري أيضا حركة تعليمية نشطة في هذا العصر ودرس به كذلك جمع من العلماء والفقهاء والوعاظ منهم أحمد بن فارس اللغوي المشهور، أما جامع قزوين فقد كان منارة للعلم والمعرفة ودرس به كثير من علماء هذه الفترة كمحمد بن يحي القزويني"ت 338هـ" ومحمد بن أحمد بن منصور القزويني "366هـ " ومن مساجد بغداد كذلك مسجد عبد الله بن

المبارك، الذي كان يدرس به الفقيه الشافعي أبو حامد الاسفراييني، وجامع المهدي بالرصافة، ومسجد أبي الحسن الدارقطني، والمسجد الكبير بدرب السلولي ببغداد، وجامع المدينة، وكان في كل مسجد جامع مكتبة خاصة به تضم أمهات الكتب والمصنفات، وانتشر وقف الكتب عليها والحلقات العلمية والمناظرات بها .

أما الأحياء التي سكنها السنة ببغداد، فكانت في جانبها الشرقي لمحلة باب الأزج وسوق الثلاثاء والحربية، أما الحنابلة فقد سكنوا باب البصرة بالجانب الغربي من بغداد قبالة حي الكرخ الشيعي[21].

وفي بلاد فارس فقد كانت الغلبة لأهل السنة من حيث العدد ما عدا السواحل الجنوبية لإيران حاليا، والمتاخمة لحدود العراق فكان أهل السنة هم غالبية سكان تلك البلاد، حنفية وشافعية بالخصوص مما يدحض فكرة أن بلاد فارس كانت مصدر التشيع، حيث يذكر الجغرافي أبو زكرياء القزويني، بأن سكانها كلهم أهل سنة ولهم كلمة واحدة في دفع ظلم الولاة[22].

أما المدارس فإن العصر البويهي لم يشهد تأسيس المدارس بمفهومها الأكاديمي الذي عرفته خلال العصر السلجوقي مع الوزير نظام الملك، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للمدارس الدينية الأكاديمية، وإن كانت قد سبقت المدارس النظامية بعض المدارس في بدايات القرن الثالث الهجري[23]. كالمدرسة البيهقية بنيسابور التي أسسها الإمام علي بن الحسين بن الشيخ الموفق البيهقي"ت 414 هـ-1023هـ" ، وتعتبر من أولى المدارس في الإسلام،ثم مدرسة الأمير نصر بن سبكتكين المسماة بالمدرسة السعيدية، كذلك انشأ الصوفي أبو سعيد إسماعيل بن علي الإستراباذي مدرسة للصوفية، وأسس أبو إسحاق الاسفراييني مدرسة بنيسابور، أما الشيعة فإنه لم يكن لهم مدارس متخصصة في هذا العهد غير ما كان لهم من ارتياد المكتبات وخزائن العلماء والفقهاء من مذهبهم.

6/انقسام أهل السنة:

لم يسلم أهل السنة خلال هذه الفترة من التناحر والتنافر في مسائل فرعية، وكان أشد المتعصبين لمذهبهم وأشدهم ذودا عن أهل السنة هم الحنابلة "أهل الحديث" ،وذلك مما أخذوه من قوة وشدة إمام المذهب أحمد بن حنبل في تصديه لمسألة خلق القرآن، ومحنته الكبيرة أيام المعتصم بالله والواثق بالله العباسيين، وقد خلفت هذه الخلافات المذهبية بين فرق المسلمين السنة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين بداية انقسام أهل السنة إلى ما يعرف اليوم بالسلف ممثلين بأهل الحديث من الحنابلة والفرق الأخرى، والخلف ممثلين بالأشاعرة و والماتريدية[24].

ولقد تكرس الانقسام أكثر في نهاية عهد الدولة البويهية، بحدوث فتن كبيرة بين الحنابلة و الأشاعرة الذين قوي طرفهم بوصول السلاجقة إلى الحكم ووزيرهم نظام الملك، الذي وجدوا فيه خير معين لهم في مواجهة الحنابلة، وكان من أسباب نصرة الوزير نظام الملك للأشاعرة أن تجرؤا على سب وتكفير الحنابلة مما جعل الفتنة تموج في بغداد، ووصفوا من سلك مذهب السلف بالمجسمة والمشبهة.

وقد كان الإمام أبو الحسن الدارقطني[25] ، على مذهب أهل السنة ومن المحدثين الذين عاشوا خلال القرن الخامس الهجري، ولم يكن أشعريا بل على العكس من ذلك فقد ألف كتابا بعنوان "الصفات" يثبت فيها صفات الله عز وجل بدون تأويل ولا تجسيم كما فعل المعتزلة و الأشعرية والمعطلة .

والملاحظة الأخيرة التي يمكن إبرازها، هي أن الأشاعرة المتأخرين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، هم المعنيون بهذا الانقسام وأن أبو الحسن الأشعري بعدما رجع إلى أهل السنة في أخر حياته خرج من دائرة الانقسام وأن الذي كرس هذا الانقسام إلى يومنا هذا جملة من الأسباب يمكن إبرازها فيما يلي:

- تعصب الأشاعرة لمذهبهم رغم خطأ كثير من عقائده.

– استخدامهم العقل واعتمادهم عليه كركيزة مذهبهم.

- دعم السلاطين والوزراء لهذا المذهب خاصة الدولة السلجوقية.

- الانتشار الكبير للمذهب الأشعري الذي مس أرجاء الدولة الإسلامية بعد سقوط البويهيين في بلاد مصر والمغرب وما وراء النهر.

وأخيرا يذكر أحد الباحثين في معرض كلامه عن الأشاعرة:" بأن الخطأ الذي يتكرر على ألسنة بعض الباحثين من عد الأشاعرة و والماتريدية من أهل السنة والجماعة حتى قال بعضهم بأن أهل السنة والجماعة يشمل ثلاث طوائف هي أهل الحديث والأشاعرة و والماتريدية، فكيف يجمع نكير السلف مع أصحاب التأويل للصفات والمخرجين لنصوصها عن ظواهرها بالله تعالي مع تجويزه بل مع وجوبه كما هو قول الأشاعرة في كثير من الصفات.[26]

ولكنها نظرة فيها الكثير من التطرف من طرف أحد الحنابلة، يجرنا إلى القول بأن الأشاعرة فرقة إسلامية كان لها دور كبير في هذه المرحلة ،وما يهمنا في هذا المبحث هو انقسام أهل السنة وباقي الفرق الأخرى والأشاعرة التي يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية "أنها أقرب الفرق إلى أهل السنة والجماعة[27]."

7/التطاول على الصحابة بالسب والطعن والقذف :

إن مكانة الصحابة عند أهل السنة والجماعة مكانة مرموقة جدا فرضها سبقهم بالصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجهادهم بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ونصرتهم للدعوة وصاحبها صلى الله عليه وسلم منذ أول يوم بدأت فيه الدعوة الإسلامية، فهم أصحاب رسول الله ووزراؤه وأصهاره وأنصاره وما قدموه للإسلام لا ينكره إلا جاحد أو ضال ولقد أثنى الله عليهم في كثير من الآيات القرآنية . لكن المتأمل في تاريخ الدولة البويهية الشيعية ينظر إلى رأي وقول آخر في فضل الصحابة وكرمهم،تعدى إلى السب والطعن فيهم ولعنهم، وهذه الشواهد التاريخية تثبت سبهم وقذفهم للصحابة:

الشاهد الأول :ما ذكره ابن كثير عن أحد العلماء والمعروف بالخرقي صاحب المختصر المشهور في الفقه عمر بن الحسين في سنة "334هـ" أي بداية حكم معز الدولة البويهي على العراق وفي خلافة المطيع الله "فإن هذا الشيخ الحنبلي خرج من بغداد لما كثر بها سب الصحابة."[28]

الشاهد الثاني : مرده إلى وقوع فتنة عظيمة بين أهل أصبهان السنة، وأهل قم وكانوا شيعة، بسبب "سب الصحابة" من طرف أهل قم فثار عليهم أهل أصبهان فقتلوا منهم خلقا كثيرا.[29]

الشاهد الثالث : حدث سنة 346هـ ، فتنة بين أهل الكرخ الشيعة وأهل السنة في المذهب بسبب سب الصحابة فقتل من الفريقين خلق كثير.

الشاهد الرابع : ما حدث سنة 351هـ عندما كتب العامة من الشيعة على أبواب المساجد ببغداد :" لعن الله معاوية بن أبي سفيان.ولعن من غصب فاطمة – فدكا- يعنون أبا بكر ومن أخرج العباس من الشورى يعنون عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن نفي أبا ذر يعنون عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن منع دفن الحسن عند جده، يعنون مروان بن الحكم. "[30]

فلم يتخذ معز الدولة البويهي حيال هذا الأمر شيئا، فلما بلغه أن أهل السنة محو ذلك أمر أن يكتب :" لعن الله الظالمين لأل محمد من الأولين والآخرين والتصريح باسم سيدنا معاوية بن أبي سفيان في اللعن ."

الشاهد الخامس : لما تحدث المحدث الشافعي محمد بن عبد الله المعروف بابن عبدويه بفضائل الصحابة بمسجد المنصور ببغداد، منعه الديلم من ذلك جهرة مخالفة لهم لأنهم يسبون الصحابة وكان ذلك سنة "354هـ ."[31]

الشاهد السادس : لما كثر السب والرفض في بغداد في عهد عضد الدولة ، ذكروا لعضد الدولة أن سبب هذا كله مرده إلى القصاص والوعاظ ، فأمر أن لا يقص ولا يعظ في سائر بغداد ولا يسأل باسم أحد من الصحابة وإنما يقرأ السائل القرآن. (32)

الشاهد السابع : ما ذكر عن الشاعر مهيار الديملي الذي كان مجوسيا، ثم أسلم لكنه اتبع سبيل الشيعة الرافضة، فكان ينظم الشعر القوي فيسب الصحابة فقيل له :" يا مهيار انتقلت من زاوية في النار إلى زاوية أخرى فقد كنت مجوسيا فأسلمت فصرت تسب الصحابة"(33).

الشاهد الثامن : ما نقل في ترجمة الشريف المرتضي نقيب الأشراف ببغداد حيث ذكر أن له تصانيف في الأصول والفروع على مذهب الإمامية الرافضة ،ذكر ابن كثير قوله:" وأعجب من ذلك "ذم الصحابة رضي الله عنهم ثم سرد من كلامه شيئا من تكفير عمر وعثمان وعائشة وحفصة رضي الله عنهم، وكان يقول عن أبي بكر وعمر : "ارتدا بعدما اسلما ؟" توفي هذا الشيعي في سنة 436هـ(34).

وفي ختام هذا المبحث نرى بأن العهد البويهي قد تميز فيه الرافضة بسب الصحابة والطعن فيهم أمام الملأ وبمباركة أمراء البيت البويهي، بل وبدعمهم ونصرتهم كذلك خاصة في العهد الأول الذي شمل معز الدولة البويهي وعضد الدولة اللذان يعتبران من أكثر أمراء البويهيين نصرة لمذهب الشيعة كذلك نجد من الوزراء من كان ينصر الشيعة ويدعمهم وأشهرهم الصاحب بن عباد الذي كان معتزليا شيعيا، ومنهم أيضا أبو الفتح ابن العميد والصابئ هلال بن محسن وغيرهم.

ولم يكن ذلك عن قناعة مذهبية من طرف هؤلاء، بل كان نصرة لتواجدهم السياسي أكثر وتوطيدا لسيطرتهم على الخلافة العباسية الضعيفة، فوجدوا في نصرة الشيعة أكبر داعم لهم في تثبيت وجودهم، بالمقابل رأى فيهم الشيعة الجو المناسب لإخراج حقدهم على أهل السنة، وقد اقتصر سب الصحابة بالدرجة الأولى على الشيعة وبعض المعتزلة، أما أهل السنة فكانت عقيدتهم صحيحة في هذه المسألة من حيث الترضي على جميع الصحابة وتقديرهم وتوقيرهم لمكانتهم وسبقهم في الاسلام.

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة يمكن أن نرصد مجموعة من النقاط تتمحور حول خطورة تلك النزاعات المذهبية ومظاهرها على الجانب الاجتماعي، فما حدث للمجتمع الإسلامي خلال العصر البويهي يمكن اعتباره تكريسا للانقسام الطائفي بين أبناء الإسلام، فقد عمل البويهيون على تغذية الصراع المذهبي الطائفي بين أهل السنة والشيعة، إلى حد الاقتتال في الكثير من الصدامات العنيفة، أما أن يصل الانقسام إلى تخصيص المساجد حتى لا تجد سنيا يصلي مع الشيعي والعكس صحيح فهذا الأمر خلف حقدا وبغضا بين الطائفتين جعلت الحياة ببغداد ومدن العراق أشبه بالمعركة الدائرة يوميا في ظل هذا الانقسام الطائفي.

أما المدارس فعوض أن تخدم الدين كرست الانقسام فكل مدرسة تعلم طلابها أصول مذهبها فقط ،فشاع التقليد دون الاستزادة من تجارب المدارس الأخرى، وأقصد هنا الشيعة الروافض بشكل خاص فمذهبهم قائم على عقيدة تتميز بالغلو والتطرف في الأفكار غذاها خلال هذا العصر نصرة الأمراء والوزراء لهذا المذهب الشيعي ، وختاما فإن هذا الانقسام الطائفي بسبب تلك النزاعات المذهبية قد خلف آثارا عميقة وكثيرة في المجتمع الإسلامي خلال وبعد العصر البويهي وما زالت آثاره إلى اليوم بين شيعة أصبحت أكثر تطرفا وجرأة وسنة أكثر تشتتا وفرقة.

الهوامش:

1) البويهيون :أسرة تنسب إلى أبي شجاع بن بويه الديلمي حكمت العراق وبلاد فارس لمدة قرن من الزمن 334هـ-447هـ،وكانت تعتنق المذهب الشيعي .انظر ابن القلانسي،تاريخ دمشق،تح سهيل زكار،دار حسان،ط1،ص19.

2) ابن كثير،البداية والنهاية،دار إحياء التراث العربي،ط1408،1،ج11،ص264.

3) الذهبي،تاريخ الإسلام،تح عبد السلام تدمري،دار الكتاب العربي،بيروت،ط2،ج25،ص22.

4) ابن كثير،المصدر السابق،ج11،ص309.

5) نفس المصدر،ص719.

6) خالد كبير علال،التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي،دار الإمام مالك،2005،ص143.

7) ابن الجوزي،المنتظم،تح عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،1412،ج14،ص234.

8) ابن مسكويه،تجارب الأمم،تح أبو القاسم إمامي،طهران،2000،ج6،ص373.

9) ابن كثير ،المصدر السابق،ج7،ص238.

10) ابن الجوزي،المصدر السابق،ج15،ص240.

11) الطبري،تاريخ الرسل،دار التراث العربي،بيروت، ط2، ج11،ص444.

12) حادثة كربلاء:وقعت هذه الحادثة سنة 61هـ بين جيش يزيد بن معاوية الأموي والحسين بن علي رضي الله عنه في كربلاء من أرض العراق ،وقتل فيها الحسين بن علي وجميع أفراد أسرته ماعدا ولد واحد وهي من الأحداث الحزينة في تاريخ المسلمين لبشاعتها وعظم المفقودين فيها.الزركلي ،الأعلام،ج2،ص243.

13) ابن الجوزي،المصدر السابق،ج14،ص240.

14) ابن مسكويه،المصدر السابق،ج7،ص401.

15) الذهبي ،العبر،تح محمد سعيد بسيوني،دار الكتب العلمية،ج4،ص476.

16) ابن كثير ،المصدر السابق،ج11،ص311.

17) نفس المصدر،ج11،ص311.

18) الطبري،المصدر السابق،ج11،ص136.

19) المقدسي ،أحسن التقاسيم،ج11،ص126.

20) محمد بن الحسن العسكري،أخر أئمة الشيعة الإثنى عشرية يقول الشيعة بأنه دخل في سرداب في سامراء وهو صغير ولم يظهر منذ ذلك الزمان وأنه يخرج في أخر الزمان ويملأ الأرض عدلا .الذهبي ،تاريخ الإسلام،ج20،ص160.

21) حي الكرخ الشيعي من أشهر أحياء بغداد ويسكنه الشيعة الروافض ويقع بالجانب الشرقي من بغداد وقد حدثت به الكثير من الصدامات بين السنة والشيعة.

22) القزويني،أثار البلاد والعباد،دار صادر،بيروت،دت،ج1،ص288.

23) كمدرسة الفقيه أبي حفص البخاري ت217هـ.

24) ابن الأثير،المصدر السابق،ج8،ص129.

25) أبو الحسن الدارقطني306هـ-385هـ:محدث وفقيه وعالم ،شافعي المذهب امام أهل الحديث في عصره .الزركلي ،المرجع السابق،ج4،ص314.

26) فيصل بن علي قزاز،الأشاعرة في ميزان أهل السنة،،ص615.

27) ابن تيمية،اقتضاء الصراط المستقيم،تح عبد الكريم عقل،عالم الكتب،ط7،ص324.

28) ابن كثير،المصدر السابق،ج15،ص226.

29) نفس المصدر،ج13،ص227.

30) نفس المصدر،ص255.

31) نفس المصدر،ص282.

32) نفس المصدر،ج15،ص383.

33) نفس المصدر،ص665.

34) نفس المصدر،ص694.